

مكتبة مصر والحجالة تجتمع
من مجموعة
مكتبة وحيد

ثوب الخليفة

إعداد

أمير سعيد السحار

الناس
مكتبة مصر
٢ شارع كامل صدقي - الجيزة

ت : ٥٩٠٨٩٢٠ - فاكس : ٥٩٠٧٥٩٣

لَوْ ذَكَرْتَنِي لَفَعَلْتَ ۚ



فهد العبداني

لَمْ تَلْبَثْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنْ قَامَتْ مِنْ قَوْرها حِينَمَا جَاءَهَا النَّبِيُّ .. وَقَدْ تَهَلَّلَ وَجْهَهَا بِالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ ، وَشَجَّلَهَا نَوْعٌ مِنَ الْعِطَةِ وَانْشَرَّاحِ الصَّدْرِ .. لَقَدْ كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ كَلَّةً مِنَ النِّشَاطِ الْغَامِرِ وَالْحَرَكَةِ الْمُتَّصِلَةِ الَّتِي لَا تَهْدَأُ ، وَلَا تَسِي عَنْ الْقَفْرِ هُنَا وَهُنَا ..

إِنَّهُ النَّبِيُّ الْحَبِيبُ .. إِنَّهَا مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ نَصِيْبُهَا مِنَ الْعَطَاءِ .. إِنَّهَا مَسْتَوْدَعُهَا خِزَانَةٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ اللَّصُوصِ ، أَمْ مَرَدَّةُ الشَّيَاطِينِ .. سَتَحْفَظُ بِهَا فِي الْمَكَانِ الْحَصِينِ الَّذِي تَرَبَّو فِيهِ الْأَمْوَالُ ، وَتَضَاعَفُ مِثْلَ الْمَرَّاتِ .. سَتُفْقِهَا عَلَى عِيَالِ اللَّهِ وَأَحِبَّائِهِ ، عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ..

لَقَدْ كَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صَانِمَةً فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَجَاءَ إِلَيْهَا الْمَالُ ، فَاخْذَلَتْ تُفَرِّقُهُ عَلَى أَهْلِهَا وَأَرْيَابِهِ وَمُسْتَحْقِيهِ .. عَلَى هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ الْكَفَافَ مِنَ الْعَيْشِ ، وَيَظُلُّ أَحْذُهُمْ طَوَالَ يَوْمِهِ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ جِئَةً وَذُهُوبًا يَتَسَكَّعُ هُنَا وَهَنَاكَ دُونَ أَنْ يَجِدَ عَمَلًا يَحْصُلُ مِنْهُ عَلَى مَا يَكْفِيهِ وَأَوْلَادَهُ ، وَيَقِيهِمْ شَرَّ الْحَاجَةِ ، وَأَلَمِ الضَّنَى ، وَمَذَلَّةِ السُّؤَالِ .. !

هَؤُلَاءِ قَوْمٌ يَجِبُ أَنْ يَنْظَرَ إِلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ ، فَيُعْطِيَهُمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَكَأَلْفِهِ بِإِخْرَاجِهِ لِأُولَئِكَ الْمُتَحَاجِّينَ الْيَوْمَاءِ ... إِنْ كُلُّ مُسْلِمٍ لَوْ فَعَلَ مَا كَأَلْفَهُ اللَّهُ ، وَأَمَرَهُ بِإِخْرَاجِهِ ، لَمَا وَجِدَ قَوْمٌ مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ الْغَرُومَةِ ، وَلَا يَنْظُرُ مِنْ تِلْكَ الْبَطُونِ الْجَائِعَةِ .. !!

ويل للفقر من الغنى الصلدي القلب ، القاسي الطباع ، الذي لا يجذ في قلبه ذرة حنان
أو عطف على عيال الله وأحبابه ، فيظل هذا سادراً لاها ، لا يحاول استرضاء قلب من هذه
القلوب ، أو إشباع بطن من هذه البطون ، بينما هو يملأ بطنه إلى حد الشبع



وشغلت عائشة بهؤلاء الفقراء عن نفسها ، ونيت ذلك الإجهاد المميت ،
وأنها خاوية البطن تبيت أكثر الليالي مع رسول الله ﷺ على الطوى ، لا تشبع
من طعام أو شراب ، ولو شاءت لشيعت ، وملأت البطن وباتت فتحة ..
وكالت تشعر بلذة ليس وراءها لذة ، وهي ترى هؤلاء المساكين
يتناولون بأيديهم نصيبهم من المال ، وإن عواظهم النبيلة التي تفيض بشكرها
على ما تهديه لهم وتعطيه إياهم لتقع في نفسها موقعا لا يعادله شيء مهما كان
الأمر .. هؤلاء رجال .. شيوخ أضغقتهم الحاجة ، وعظمهم الفقر بنانه ،
وكهول أفتقتهم الحاجة والمرض ، وأذلهم السؤال والطلب ... وهؤلاء نسوة
مزمزلات ، فقدن العائل والنصر ، لا يجدن صدرا يعطف عليهن ولا قلبا

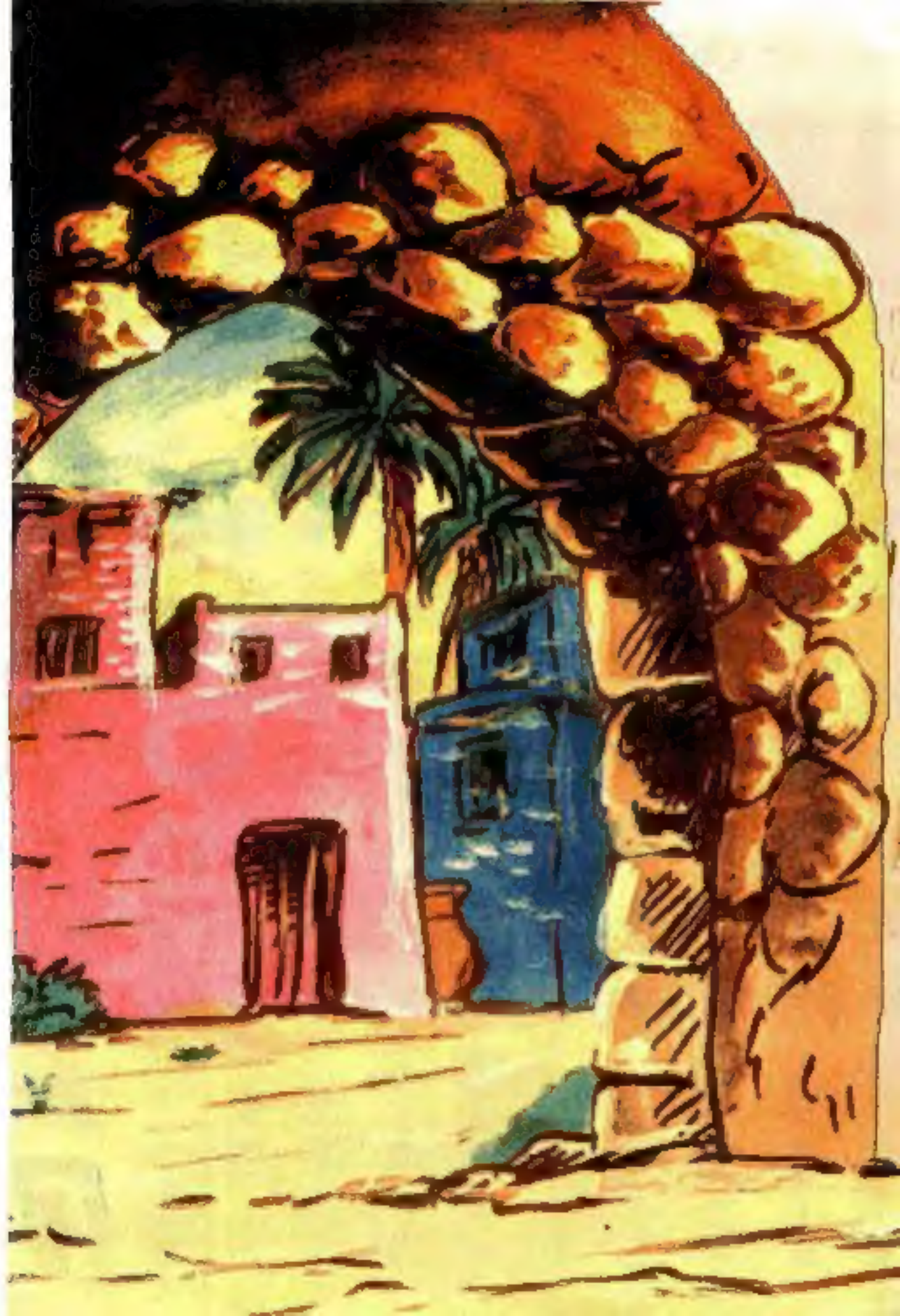




يُشفقُ بهنَّ ، ولا فؤادًا يحو عليهنَّ .. ويجذن في هذه اليد الممتدة إليهنَّ
بالإحسان والصدقة عطفًا ورحمةً وتبلاً يعجزن عن تقديره وشكره ، ولا يجذن
سوى شيء واحد يعيرون به عن بعض ما يجذن ، ذلك هو الذموم .. إنها
لنقبض حينذاك فيضاً هو دليل التبجيل والتوقير والاحترام .. !

وإن الذموم من هذه العيون المقروحة ، لبعث في القلب لوعةً وأسى ، ورتاءً
وحزاناً .. وما أجمل يد أم المؤمنين تمتد بالعطاء الجزيل ، تأسو الجراح وتواسي
الاحتاج .. إنها ملاك الرحمة ينشر على العباد ألواناً من فيوض الله وتعمائيه
الزاهرة ، وما أجمل العون في سبيل الخير بين الرجال والنساء في ذلك العهد
الذي تضافرت قوى الشر فيه لتخذل الحق وترفع لواء الباطل ، فأبى الله إلا
أن يرفع كلمته ، ويغلي دينه ، ويجعل من هذه الفئة المتواضعة المتعاونة في الحق
- به تحيا ، وفي سبيله تموت - أمةً تبعث الحياة في موات العالم الذي نسي
الضعيف وجحد حق الفقير والمسكين ، فارتفعت المادية وأصبحت لها منزلة
محترمة ، ومكانة معروفة .. ثم عاش الفقير والضعيف في زوايا النسيان على
فئات الموائد ، يحيا حياة تأبأها البهائم الرثع ، ومع ذلك فهو لا يمكنه أن يرفع
صوته أو يقول كلمته .. !!

فلينظر العالم الموبوء الآن .. فلينظر العالم الذي يحاول أن يجده الخلاص مما
فيه - فلينظر إلى عائشة أم المؤمنين وهي صائمة تفرق مائة ألف درهم وهي في
أشد الحاجة إلى درهم واحد منها ، تفرقها كلها في سبيل الله لا تبقى منها شيئاً
لنفسها .. !!



يا لله ! .. لقد وقفت خادم عائشة أم المؤمنين تعجباً لهذا الإيمان وذلك الإيثار ، إنها لم تجد لها مثيلاً أبداً بين النساء .. لقد نسيت سيدها عائشة نفسها .. إنها صائمة وهي كذلك صائمة مثلها ، وإن الجوع يكاد يقتك بها فتكاً ذريعاً ، ولكن أتى لعائشة أن تأبه بالجوع نفسها ويهق أعصابها ، ما دامت تشبع البطون الجائعة ، وتكسو الأبدان العارية . وتفرح القلوب الحزينة ، وتأسو الألفدة الجريحة .. !!

إنها وزعت مائة ألف درهم في يوم .. وما هي ذى الشمس كادت تغرب ، وما هي ذى سيدها قد نقضت يدها من ذلك المال الذى لا تجد فيه لذة أو منعة كما يجد الناس .. سواء لديها أجراء أم ذهب - هو فقط طريق إلى الآخرة ، يدخر هناك يوم لا ينفع مال ولا بنون ... ولكن ما معنى هذا ؟ .. أمعاه أن تبقى جائعة لا تجد ما تفطر به ؟ .. لقد وجدت في نفسها الشجاعة الكافية لتصارح سيدها بهذا الأمر ، فربما احتاطت سيدها وعملت ما يضمن لهما الإفطار .

قالت الخادم في أدب ولطف :

- ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحماً نفطر عليه .
وكأنما وقعت هذه العبارة من اليد عائشة موقعاً مؤثراً ، جعلها تستيقظ من حلم .. حقاً .. إنها فرقت مائة ألف درهم ، ولم تبق شيئاً لها ولخادمها .. يا لله ،



لقد أنساها عيالُ الله وأحيائه نفسها فما عادت تذكُرُ نفسها التي بين جنبيها ..
ولكنها تقدرُ أن تصيرَ على ألم الجوع ، بل ترى في هذا من الراحة المعويّة ،
والنعيم الروحي ما يعوّضها عن كل ما فقدت ، فما بألفا تنسى هذه الخادم !! ..
وكانما أحسّت من عبارة الخادم ريح العتاب واللوم ، فاستيقظت في نفسها
طبيعة الدفاع عن النفس فقالت لها على الفور في شيء من الدُعابة والظُرف :
لو ذكرتني لفعلت .. !!

فصمت الخادم لأنها علمت أنها هي الأخرى نسيت نفسها في سبيل الله .



ثوب الخليفة..!



أنصت الناس لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يحدث.. وكأنما على رؤوسهم الطير، لا خوفًا أو رهبة من الرجل العظيم، الذي يكاد يزن الدنيا زهدًا وورعًا، وتُحوى إيمانًا، فما عودتهم ذلك على الرغم من شدته في الحق، وعلوته وسطوته في حدود الدين - وإنما انصوا إجلالًا واحترامًا للرجل الذي يصح الأمر في نصايها، ويعرف لكل شيء قدره ومزله، فلا ظلم ولا غدر، ولا غيابة ولا جور، ولا فحابة تطفئ على حقوق الناس وتضيع عليهم جهودهم وأموالهم.. واعتقد كل إنسان أن قوله الحق سينطق بها لسان عمر رضي الله عنه عما قريب، وأنه سيفصل الخطئة التي يريدونها لنفسه، ويريدونها للناس، ويريد أن يحمل الناس عليها رضوا أم سخطوا، ما دام يؤمن بصلاح هذه الخطئة إيمانًا يفيض نور الله، ويتصوًا بطياء الحق، سامي الغاية، رفيع الغرض.

وارتفع الصوت حازمًا قويًا يردّد صده بين هذه الرّحاب الطاهرة التي لم تعرف أفضل من هذا الدين، ولا أزوع وأخير من رجاله وأهله، قال: «ألا أخيركم بما استحل من مال الله تعالى؟».

واستطالت الأعناق وشغصت العيون، وطرق هذا السؤال آذان الناس في وضوح وإشراق، فما آمن حديث المأذة بالنفس، وما أقربه إلى كل فؤاد، فهو أعون شيء للمفسد، وأقوى سلاح للمطيع، وما أحوج الأمة الإسلامية إليه في هذا الطرف القاهر الخرج، وهي على أبواب الفتح، وطرق هذه الميادين الرحية، التي تمتد إلى بلاد الروم والفرس. وتفتحت القلوب قبل الأسماع، وارهفت الآذان، واعتقد كل إنسان أنه لا بُدَّ سيكون له مقدار من المال يكفيه، ويحفظ له هيبته كخليفة لرسول الله ﷺ.. يكون له كراتب من بيت مال المسلمين نظير إدارته لشئونهم، ورعايته أحوالهم، وحريصه على مصالحهم.. بيد أن حياة عمر يجب أن تنفص قليلًا عما كان عليه رسول الله ﷺ من الضيق والعسر، والرّهد في هذه الحياة.. يجب أن يكون له من الجاه والعظمة، والمجد والخدم والحشم، ما يقع إلى حد ما موقفًا بمائل حياة كسرى، ونعيم قيصر.. يجب أن يكون للإمبراطورية الإسلامية الفتية القوية، التي تقوم على هذه السواعد الشابة، التي تفيض إيمانًا ووفاء، وإخلاصًا للحق ونصرته - مظهر سام، ليس فيه بدخ



ولا إسراف ، ولكنه في حدود الاقتصاد والتحشم والوقار .. ولكن صوت غمر قطع
 حبل هذه الأفكار ، وأرجع الناس إلى الواقع الذي لا شك فيه .. إلى الحق الصراح ،
 حينما أجاب هو على ذلك السؤال ؟

« خلتان لثتاني وقبظي^(١) ، وما يسقى من الظهر^(٢) لحتي وغمرتني ، وقوتني بعد
 ذلك كقوت رجل من قريش ، لست بأرفعهم ، ولا بأوضعهم » .

وهمهم الناس بالتكبر والتهليل ، وتطلع بعضهم إلى بعض ، وقد عقدت الذهنية
 الستهم ، وسبحوا في خضم من التورائية الروحانية التي تسحو عن الماديات ، وزاوا في
 غمر الخليفة العادل الذي لا يابسه بمظاهر الحياة ، وزخارف الدنيا ، القائد الأول لهذه
 الكتاب الإسلامية التي تضرب في ظلام الحياة ، تيرة للناس ، وتوضح لهم الطريق
 الحق ، في صرامة وعزم .

لك الله يا غمر !.. خلتان فحسب ! حلة لبرد الشتاء القارس ، وأخرى لقبظ الصيف
 الأليم ؟ .. إن الرجل العادي من الناس لا تكفيه هاتان الخلتان ، فكيف بالله يكفي خليعة
 مسلمين بهاتين الخلتين ؟ ولكن عمر بن الخطاب .. يعرف قيمة المال يستغل في رفاهية
 الأمة بأسرها ، لا لرفاهية الخليفة وأسرته .. ما أبعد الناس عن طريق الخير ، وسبيل التقى
 والصلاح .. لقد وضع غمر بهذا الدعامة الأولى حياة الرجل العادى في بعدها عن الرذائل
 الكماليات ، والنظر إلى الجوهر واللباب ، دون القشر والمظهر الخلاب .. !!

ثم ماذا ؟ .. ثم ما يكفيه من الإبل حجه وعمرته .. أما الرفاهية والتعيم وما راذ عن
 الحياة الماسة ، فلا حاجة له به ، ولا حظ له فيه ، فهو لا يجد وقتا لنفسه وحاجات
 نفسه ، وهو لا يجد فكرا يتجه به إلى مصالحه الشخصية ومصحة بدنه ، وإنما ملكت عليه
 مصالح المسلمين ومطالبهم كل وقته وفكره وجهده ، فهو لا يعيش هذه النفس التي بين
 جنبيه ، وإنما يعيش للناس جميعا ، للمسلمين عامة ، يأسو الجراح ، ويداوى المرضى ،
 ويواسى الحزين .. ويلقى بنفسه في الميدان مجاهدا مدافعا عن دين الإسلام دين الله ،

دين الحق ، مخاطراً بكل ما يملك من قوى وسلطان .

وهو لا يرى نفسه أرفع من أفراد المسلمين وأوساطهم . فلا حاجة به إذن لطعام خاص ، يسل له يطبخه وتشويه ويحمّره ، ليميّز به بين الناس ..

ولكن عمر صمت قليلاً ، وصمت الناس لصمته ، لقد كان يفكر في شيء يريد أن يقوله ، فعاداً يريد يا ترى أن يقول ؟ وأخيراً انطلق الصوت في حيرة وأرباك وإشفاق :
« هو الله ما أدرى أبجل ذلك أو لا ؟ » .

سبحانك اللهم .. خليفة يلي أمر المسلمين يضع لنفسه هذا المنهاج الذي لا يكاد يفرق بينه وبين الأفراد المتوسطين من المسلمين ، ولا يكاد من يرى حياته ومظهره أن يرى شيئاً غريباً أو عجباً ، ومع هذا ، فهو في شك من هذا المنهاج .. 11 .

إذن فعاداً يريد أن يكون ، وما الحلال إن لم يكن هذا هو أصل الحلال ؟ .. إن ما اتوى أن يأخذه عمر من بيت مال المسلمين لا يتجاوز أن يكون نفقة لبيت متواضع جداً من بيوت المسلمين ، فلم يخرج إلى هذا الحد يا خليفة الرسول الكريم .. أشرف علينا بتورك يا عمر ، خليفة يداوى القلوب ، ويبرئ الأفتدة ، ويجلو الصدور .

وهكذا فاضت أحاسيس الناس ، وكلهم يرى عمر بن الخطاب مضيقاً على نفسه وعلى أولاده خشية أن يكون قد أخذ من بيت المال أكثر من الحاجة .. ولكن هذه المشاعر كلها مقترنة بالإعجاب والتقدير ، والإعزاز والحب ، ورفعة القدر ، وسمو المرتبة ، وما أجمل هذه الصلات بين خليفة وشعب ، وما أقوى هذه الأواصر بين حاكم ومحكوم .. وما أعجب هذا المنهاج القصير الواضح ، الذي لا يحوطه شيء من الغموض ، ولا تشويه شائبة من التخرير أو التضييل .